الكتاب الثامن عشر

سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها

للباحث الجزائري د. محمد هيشور

طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي (ط١)
القاهرة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

تحليل وعرض أ.د/ محمد قاسم المنسي
أستاذ الشريعة الإسلامية - كلية العلوم - جامعة القاهرة.

تقدمة:

لاشك أن البحث عن السنن الإلهية وإدراك أهدافها وغاياتها وأبعادها ومراميها خير معين للبشرية الحائرة نحو بلوغ الطمأنينة والاستقرار، سيما لو اعتمد البحث علي أوثق كتاب عرفته البشرية وهو القرآن الكريم، الذي أحاط علمه بما كان وما يكون وما سيكون، فهو علم الله تعالى المحيط بكل شيء جل وعز؛ لكن علينا أن ندرك الفرق الكبير بين مراد الله تعالى، وتصور الباحث، فقد جل الله تعالى المحيط أن يحيط بعلمه أحد إلا بما شاء قال تعالي: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ ...﴾ [البقرة:٢٥٥].

من هنا كان الحديث عن سنن القرآن الكريم تصورًا وكشفًا لا إحاطة وعلمًا، ومع ذلك فالبحث في القرآن الكريم له من الأهمية حيث هو دستور الأمة الخاتمة، وقراءته عبادة وهداية فهو كما قال تعالي: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١،٢].

إن السنن باعتبارها قوام التكرار والاستقرار خير معينة للإنسان علي بلوغ

الغاية وتحقيق المرام، وقد ضمن الله تعالي لها الدوام والاستمرار فقال تعالي: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

من هنا كانت أهمية تلك الدراسة للباحث محمد هيشور الجزائري والمعنونة (سنن القرآن[١] في قيام الحضارات وسقوطها، والتي نقف أمامها من خلال عرضها وتحليلها في النقاط التالية:

أولاً: ملخص الدراسة. ثانيًا: رؤية تحليلية نقدية للدراسة.

أولاً: ملخص الدراسة:

جاءت الدراسة في مقدمة وخمسة فصول وخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع.

في المقدمة تناول الباحث أهمية البحث في السنن سيما الثنائية الخاصة بقيام الحضارات وسقوطها، وتأتي أهمية الدراسة لتلك السنن أنها قائمة علي آيات القرآن الكريم، وذلك يمثل دفاعًا عن القرآن الكريم وبيان دوره في تشكيل التصور الفكري وهو ما يجاوز دور الهداية والوعظ الديني أو الروحي الذي أريد للقرآن الكريم ألا يتجاوزها إلي رسم تصور عن الحياة وشئون التحضر والملك والسياسة والعلوم والمعارف ومناحي الحياة كافة.

وبيّن الباحث أهمية الدراسة باعتبارها كاشفة عن هذا الجانب الهام،والخاص بأسرار التقدم وعوامل التأخر والتداول والتمكين الحضاري.

ويري الباحث أن أبرز دوافع الدراسة تكمن في بيان أهمية الدراسة القرآنية في تقويم حياة المسلمين وإصلاح شئونهم المعرفية والعملية إلي جانب أن القرآن أوثق المصادر المعرفية وأكملها لدنيا بما له من إحاطة بسنن التحضر وقوانين حركة

(١) الملاحظ أن الباحث الكريم لم يذكر القرآن في ثنايا البحث أو من خلال عناوينه الرئيسة ويتبعه بالوصف اللائق به سواء أكان القرآن الكريم أم القرآن المجيد أم القرآن العزيز، ولست أدري هل يلتمس له العذر في ذلك أم لا؟!

التاريخ والاجتماع البشري.

هذا إلي جانب قلة الدراسات العلمية التي اهتمت بالسنن الحضارية من جانب المفكرين والمفسرين، الأمر الذي أتاح التشكيك - من جهة البعض - في قدرة المسلمين علي القيام بدور حضاري معاصر.

ويري الباحث في مقدمته أن الإنسانية تجتاز فترة من الفوضى والاضطراب بسبب هيمنة القيم المادية وغياب القيم الروحية بغياب أصحابها (المسلمين) لذا فهو يريد أن يقدم تصورًا إسلاميًا يسهم في حل الإشكال بتقديم الحلول من منطلق قرآني.

وأخيرًا عرض الباحث لطريقة عرضه لأفكار بحثه ومجمل الخطة المتبعة والتي تمثلت في خمسة فصول؛ الأول عن معني السنن لغة واصطلاحًا وبيان أنواعها الجبرية والاختيارية وعلاقة السنن ببعض القضايا الفلسفية كالحتمية والصراع.

والفصل الثاني: قضية الحضارة عند المفكرين الغربيين والمسلمين.

والفصل الثالث: سنن القرآن الكريم في قيام الحضارات.

والفصل الرابع: سنن القرآن الكريم في سقوط الحضارات.

والفصل الخامس: سنن التجدد والاستبدال الحضاري في القرآن الكريم.

وإذا وقفنا مع هذه الفصول وقفة سريعة يتبين لنا طرح الباحث وكيفية معالجته بوضوح.

في الفصل الأول: معنى السنن وأنواعها: تناول الباحث في الفصل الأول معني السنة لغة واصطلاحًا فقال: السنة من سنّ الشيء: داوم عليه أي تعني الدوام والثبات علي الأمر، واصطلاحًا: ما بينه الله تعالي للإنسانية من طرق واتجاهات الأمم السابقة ومثلت قانونًا مطردًا ثابتًا لا يتغير ولا يتبدل.

والسنة في الاستعمال القرآني تعني: الطريقة والقانون، وإن تشعبت منه تعريفات بحسب المضاف إليه سواء أكان: الذات العلية (الله تعالى) أم الأمم أم الأفراد.

كما تناول السنة في عرف المحدثين واصطلاح الأصوليين. وبيّن أن هدف دراسته البحث عن السنن التي تمثل قانونًا إلهيًا ثابتًا مطردًا، وتتحكم في حركة التاريخ وتبدل الحضارات، وعرج إلي تعريف السنة عند المفكرين وهي مجموعة القوانين التي يسير وفقها الكون كله وتتحرك بمقتضاها الحياة، ومن ثم فالإنسان وحده بماله من إرادة مطالب بالبحث عن هذه السنن ومعرفتها والبحث في أسرارها للقيام بإعمار الأرض وأعباء الاستخلاف لذا فالسنة تنقسم إلي قسمين:

١- **سنة إجبارية**: تجري علي الكائنات كلها كالحياة والموت.

٢- **سنة اختيارية**: ما تدخل فيه إرادة الإنسان واستخدامه لملكاته لتحقيق غاية وجوده ومسئوليته عن أفعاله وهي لا تخضع لإيمان أو كفر - أي لعقيدة - إلا ما كان متعلقًا بأسباب الوصول إلي الأهداف المتعلقة بكل من المؤمن وغيره.

ونبه الباحث أن إلي أهمية العلم بالسنن لدورها الكبير في تطور الأمم وازدهارها وعلو حضارتها وتحقيق السعادة والأماني متى أخذت بها، وخطورة الجهل بها لما يؤدي إلي القلق والاضطراب والضعف والهوان.

وذكر الباحث أبرز خصائص السنن في القرآن الكريم وتمثلت في:

١- أنها إلهية كلية شاملة للنظم كافة (الاقتصادية -والاجتماعية - السياسية- والتربوية-..إلخ.

٢- أنها عادلة تقوم علي العدل.

٣- أن الإنسان محور اهتمامها.

٤- أنها أسس التقدم، ومحور تأكيد التجارب والأحداث.

وأكد الباحث في نهاية الفصل أن التباين الحضاري بين الأمم لم يأت عبثًا وجزافًا إنما كان نتيجة تفاوت في فهم سنن التحضر والتمدن، ومن ثم ركز علي بيان مفهوم الحضارة في القرآن الكريم وهو: الاستقرار الناتج عن العدالة والإقامة والتطور والقرآن بذلك أغني الباحثين عن النظر والبحث عن الدلالة الاصطلاحية للحضارة علي حد تعبيره بعد ربطها بالإقامة والاستقرار.

كما أن القرآن الكريم أتى بالمبادئ العامة والمنهج الكلي الذي تبين أن فكرة الحضارة تمحورت حول الاستجابة لدعوات الأنبياء عليهم السلام - هذا في جانب قيامها وازدهارها، أما من حيث سقوطها فناتج عن تنكب طريق الاستجابة، وقصص الأنبياء من نوح وهود وصالح وشعيب.. شاهد لذلك.

وفى الفصل الثاني: تصور الحضارة لدي بعض المفكرين الغربيين والمسلمين.

وقف الباحث أولًا عند المفكرين الغربيين وأرائهم وهم:

١- **كارل ماركس** (١٨١٨م١٨٨٣م) والذي تمحورت آراؤه الحضارية حول المادية الجدلية والمادية التاريخية.

٢- **أزفالد سبنجر** (١٨٨٨م-١٩٣٦م) ولخص آراءه في إطار المادية الوضعية التأملية.

٣- **أرنولد توينبي** (١٨٨٩م) وقيام نظريته علي فلسفة التحدي والاستجابة، بمعني أن الحضارة ميراث إنساني تقوم علي التفاعل بين التحديات الداخلية والخارجية وهو ما يعني فكرة الاستجابة.

أما المفكرون المسلمون فهم:

١- **عبد الرحمن بن خلدون** (٧٣٢هـ-٨٠٨هـ) فرؤيته تقوم علي الاستقراء الخاص به من خلال تنقله عبر أقاليم ومساحات واسعة من عالمنا الإسلامي والتي

استخلص منها أن الأمم تمر بثلاث مراحل:

الأولي: مرحلة البداوة التي تحكمها العادات والحاجات.

الثانية: مرحلة تأسيس الدولة ومعرفة القوانين.

الثالثة: مرحلة التحضر وما يتبعه من دواعي الاضمحلال وعلي رأسها الترف.

يري ابن خلدون التحضر ضرورة بشرية وحتمية إنسانية واجتماعية (فالإنسان مدني بطبعه) وللأخلاق دور كبير في استمرار التحضر وتماسك الملك ودوام السلطان.

كما يري أن الحضارة عاطفة كامنة في الإنسان بما وهبه الله تعالي من عواطف ومواهب وفطرة كما أن لجهود المفكرين والمصلحين دورًا كبيرًا في حياته الحضارية وقيادتها.

لكن الملاحظ – كما يري الباحث – أن البيئة الجغرافية لها الدور البارز والرئيس في التحضر البشري عند ابن خلدون إلي جانب العصبية بدوافعها المعرفية.

وعن رؤية ابن خلدون لسقوط الحضارة، فالظلم والترف من أوائل ما يؤذن بزوال الحضارة وخراب العمران.

ويحسب لابن خلدون أن رؤيته نابعة عن تصوره وملاحظاته لظواهر الاجتماع دون تأثر برأي سابق أو رأي مبيت.

٢- مالك بن نبي (١٣٢٥هـ-١٣٩٣هـ / ١٩٠٥م-١٩٧٣م)

يرى المفكر الإسلامي مالك بن نبي أن الحضارة فكرة تتجسد في رجل، تهدف إلي سعادة الإنسان بتوفير العناصر الروحية والمادية له. وهي تمر بثلاث مراحل:

الأولي: مرحلة البدء (فجر الحضارة)، **والثانية**: مرحلة ظهور الأمراض والنقائص، **والثالثة**: مرحلة التفكك والسقوط، وهذه المرحلة الأخيرة هي مرحلة

تحرر الغرائز علي حساب القيم، وسيادة النزعة الفردية وعلو الأنا علي حساب الأمة أو الجماعة.

ويري مالك بن بني أن أخطر ما تواجهه الحضارة تضخم الأنا وتحلل الجسد الاجتماعي لصالح الفردية.

٣- أبو الأعلى المودودي (١٣٢٣هـ-١٣٩٩هـ/ ١٩٠٣م - ١٩٧٩م)

يربط المودودي قيام الحضارات بالغاية التي بعث لأجلها الرسل، وأن تحققها في الحياة تمر بمراحل ثلاث:

الأولي: مرحلة الانقلابات الفكرية في عموم الإنسانية من خلال تلك الرسالات.

الثانية: مرحلة تكوين الجماعة المؤمنة بالفكر الجديد.

الثالثة: مرحلة إقامة الحكم الإسلامي وتنظيم الحياة بكافة شعبها علي أسسه ومنطلقاته والجهاد لبسط سلطانه وتوسيع دائرته.

ويري الباحث أن المودودي في سبيل مواجهة الحضارة الغربية القائمة علي القومية والديمقراطية والعلمانية قدم ثلاثة بدائل - تقوم علي أساسها الحضارة المرجوة - وهي ؛ التسليم لله بالطاعة، ومبدأ الإنسانية ومبدأ الحاكمية.

إن عوامل قيام الحضارة عند المودودي هي: قيام الحياة بشرائط غاية الوجود وسيادة العقائد والأفكار السامية، وتربية الأفراد والنظام الاجتماعي السديد. وفي المقابل فإن سقوط الحضارة يقوم علي عوامل داخلية وأسباب ذاتية تشبه حركة الكون الدورية.

ويختم الباحث هذا الفصل بالحديث عن الدورة التاريخية والتعاقب التاريخي في رؤية المفكرين، ويري أن ظواهر قيام الحضارات وسقوطها يرجع إلي مجموعة من

العلل والأسباب المؤدية لذلك مع التسليم بالفارق الكبير بين قيام الحضارة وتطويرها وسقوط الحضارة وتدهورها، ويري أن الخلط الشديد في تصور المفكرين الغربيين لا يحله سوي التصور القرآني لقيام الحضارات وسقوطها وهو موضوع الفصل الثالث والرابع.

وفى الفصل الثالث: سنن القرآن الكريم في قيام الحضارة.

يبدأ الباحث بإعطاء فكرة عن الوجود والخلق والنشأة من خلال آيات القرآن الكريم في قوله تعالي: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ...﴾ الآية [فصلت:١١] وقوله تعالي: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك:٣،٤]، ويناقش آراء الفلاسفة الغربيين في الخلق والنشأة والتطور، وما قامت عليه نظرياتهم من مخالفات للمنهج القرآني (التصور القرآني للوجود)، والردود التي قدمها المفكرون المسلمون علي تلك النظريات لاسيما ردود مالك بن نبي.

وكانت تلك تقدمة من الباحث للولوج إلي أهمية النظر والعبرة من التاريخ التي دعى إليها القرآن الكريم في قوله تعالي: ﴿..إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [آل عمران:١٣]، وقوله تعالي: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [النازعات:٢٦].

ويستأنف الباحث حديثه عن أهمية العقيدة والإيمان باعتبارها الفكرة التي تقوم عليها الحضارة – وهو في ذلك متأثر برؤية المودودي وغيره من المفكرين المسلمين – وتترجم طبيعة الفطرة البشرية.

وفي حديث عن العبادة باعتبارها ترجمة للإيمان وما أخذ علي الإنسان من عهد في قوله تعالي: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [يس:٦٠]، وفي قوله تعالي: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ ﴾ [هود:٢]، حيث كانت وصية الأنبياء تباعًا، وأساس استقامة السلوك وانضباطه ،

يتحدث الباحث عن أهميتها باعتبارها عنصرًا رئيسيًا في قيام الحضارة وصيانتها.

ثم يتناول الباحث قيمة السلوك الإسلامي وأثره في تكوين الأمة نفسيًا واجتماعيًا ومن ثم حضاريًا.

وأخيرا يختم الباحث حديثه عن عوامل قيام الحضارة بتناول الجمال كثمرة للاعتبار والإيمان والعبادة والسلوك. ذلك الجمال الذي يمثل ذروة الحضارة وزينتها والذي يرجع إلي الخالق المبدع جل وعز فهو سبحانه جميل يحب الجمال!

الفصل الرابع: سنن القرآن الكريم في سقوط الحضارات.

يبدأ الباحث حديثه ببيان معني السقوط الحضاري في القرآن الكريم والذي يشير إلي أن سقوط الحضارة لا يقتضي بالضرورة زوالها بقدر ما يعني انهيارها وذهاب قوتها وعزتها ومن ثم هوانها علي الأمم الأخرى. ومثل لذلك بحضارات العرب البائدة كعاد وثمود وغيرهما، حيث نجاة المؤمنين وهلاك الظالمين، بما يعني وجود بقية تقوم بالعمارة والاستحلاف مرة أخري.

وعن كيفية السقوط الحضاري صور القرآن الكريم ذلك بظهور العلل والأمراض في الداخل والخارج ومن تلك العلل والأمراض: كثرة المظالم وظهور الفساد والبعد عن الاستقامة، قال تعالي: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

ونتيجة لذلك تتعرض الحضارات لسنن الابتلاء والنذر بأن تصاب بالبأساء والضراء والفقر والجوع وقلة المؤونة وذهاب الثمار - والنعم، وقصص القرآن الكريم عن قوم فرعون وقوم سبأ شاهدة أن الجزاء من جنس العمل فالتكذيب بالرسل (ويعني الإلحاد) وانتشار الظلم بأنواعه مؤذن بزوال الحضارات وسقوطها واستبدال أهلها.

وفي **الفصل الخامس** تناول الباحث: سنن التجدد والاستبدال الحضاري في القرآن الكريم: حيث إن الله تعالي ما أهلك قومًا إلا وأنشأ بعدهم آخرين يعمرون الأرض، ليستمر العالم قائمًا علي أسس سليمة صالحة للبقاء والاستخلاف.

إن التجدد والانبعاث - من وجهة نظر الباحث - لا يكون إلا من منطلقات ذاتية تربط الماضي بالحاضر، فالتجدد سنة ثابتة في الكون وكائناته، ولو تأمل الإنسان ذاته لوجده كائنًا، كل ذلك في ضوء قانون الهدم والبناء والموت والحياة، وكما تتبدل الأشياء تتبدل الأحوال والأفكار.

ويلفت الباحث الكريم أنظار قارئيه إلي أن الحضارة التي تريد أن تحتفظ بهويتها وشخصيتها وخصائصها فعليها أن تنظر في أوليات قيامها وأسس بنائها وتعود إليها وتثبت عليها، ولا تتردي في مهاوي السقوط بالانحراف العقدي والفكري والأخلاقي.

ويؤكد الباحث فكرته تلك بالإشارة إلي أن برنامج التجديد ينبغي أن يُبني علي بناء علاقة سليمة تجمع عن تصور الحقوق الأصلية لله والإنسان والكون في مراعاة تامة بين أولويات تلك الروابط، كما يرسم الباحث خطوات البرنامج التجديدي والذي يبدأ بما يلي:

الخطوة الأولي: التغيير الداخلي للأنفس لقوله تعالي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ..﴾ [الرعد: ١١].

الخطوة الثانية: الإعداد الذاتي لأسباب القوة والاستمرار باستخدام القدرات الذاتية الكامنة والأدوات المادية المتاحة في عالم الأشياء لقوله تعالي: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ..﴾ [الأنفال: ٦٠].

ومثَّل الباحث لتجربة التداول ببني إسرائيل في سورة الإسراء، فالدولة تكون لأهل الحق بعد أن يهيمن عليها أهل الباطل تحقيقا لسنة التداول، والعاقبة دائمًا بأهل الحق. ولله الحكمة البالغة في كل أمة من الأمم أنها متى تقدمت وارتقت ماديًا ومعنويًا، واطمأنت إلي رقيها واعتمدت علي قوتها وأعجبت بها حتى نسيت مقومات بقائها واستمرارها إلا وداهمها بأس الله وحل عليها - بما كسبت - غضبه. لكن رحمة الله السابقة تبقي للبشر فرصة التداول والاستبدال ببقاء الصالحين المصلحين، قال تعالي: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ...﴾ [التوبة: ٣٩] وقوله تعالي: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨].

وتحت عنوان: سنن الاستخلاف في الأرض في القرآن الكريم يتحدث الباحث عن أنواع الاستخلاف العام والخاص؛ **العام** وهو الخلافة الكونية القائمة علي الأفضلية والخيرية، **والخاص** وهو استخلاف أفراد وأجيال وجماعات ودول دون أخري: قال تعالي: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ..﴾ [الأنعام: ١٦٥] وهي شاهد الاستحلاف العام، أما الاستحلاف الخاص فمشاهدة قوله تعالي: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ..﴾ (يونس:٧٣).

ويري الباحث أن سنن التمكين الحضاري تتلخص في أن التمكين لا يأتي إلا بعد ابتلاء كما في قصة بني إسرائيل مع فرعون، ومنها أن العمل أساس التمكين كما في قصة ذي القرنين.

وعن سنة وراثة الأرض يذكر الباحث قوله تعالي: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ

عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ – ١٠٧] ، ويستقرئ أقوال المفسرين فيها وفي غيرها مما جاء في سياق الحديث عن بني إسرائيل مع فرعون من سورة الأعراف وسورة الدخان، وبين أن الحق تعالي يورث الأرض للصالحين من عباده، مهما كانت قوة الظالمين فهي قوة وهمية زائفة تسير نحو الضعف والهوان، وشاهد النصر يوم بدر مع نبينا ﷺ خير شاهد.

إن مصير الحضارات وآجال الأمم إلي فناء ويبقي وجه ربك ذو الجلال والإكرام، فالكل مهما علا إلي أجل معلوم ومصير محتوم، ولله في خلقه شئون، لا يُسأل عمل يفعل وهم يُسألون ! قال تعالي: ﴿ وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴾ [الإسراء:٥٨].

وفي خاتمة البحث (الدراسة) يقف الباحث علي طبيعة منهج القرآن – في عرضه للقضايا الإنسانية التي منها موضوع بحثه السنن الخاصة بالحضارات باعتبارها حصيلة إنسانية وثمارًا بشرية الثاني علي العموم والشمول مع الدعوة إلي التأمل والتدبر والاعتبار للوصول إلي أهدافه ومراميه في أحكامه وأمثاله.

ويري الباحث أن قضية السنن تقوم في القرآن الكريم علي أساسين هما:

الأول: اليقين بوجود الله ووحدانيته وتدبيره.

الثاني: نفي التطور الذاتي والتطور الطبقي ذي التصور الإلحادي.

هذا ما ذكر القرآن المجيد لأبرز القوانين والسنن الإلهية التي تصون الحضارة وتؤصل العمران مثل قانون التغير وقانون التكوين وقانون الاكتشاف. ومتى تمكن الإنسان من الوصول إلي فهم تلك السنن امتلك أسباب التحضر الدائم.

إن الطريق الأمثل للتحضر البشري – كما يري الباحث – هو العودة بالحياة إلي المنهج الرباني أو المنهج القرآني، لذا يوم يستطيع المسلمون – حديثًا – أن يمثلوا

منهجهم القرآني ويعيشوا سننه فهمًا وعملًا تمكنوا من إثبات صلاحية منهجهم وصلاحية وجودهم ؛ وأثبتوا للعالم - في سلوك حضاري - أن الله تعالى أراد لخلقه الهداية والسعادة والرشاد واقعًا في المعاش والمعاد.

ثانيًا: الرؤية التحليلية النقدية:

وبعد عرض أفكار الباحث نري أن الطبيعة الفلسفية والتأملية الجدلية قد طغت علي الباحث في كثير من عرضه حتى إنه يمكن القول أن الدراسة لو عنونت بـ: قيام الحضارات وسقوطها في الفكر الإسلامي مقارنة بالفكر الغربي لكان مناسبًا للبحث، ذلك أن الباحث في الفصل الثاني قد استطرد في العرض الفلسفي لإشكالية البحث لدي الغربيين والمسلمين مع أن ذلك لم يكن هدفه الرئيسي من الدراسة. كما إنك إذا نظرت في الفصل التمهيدي وجدته يقحم نفسه في استطرادات لم يكن البحث في حاجة إليها كالحديث عن الصدفة والصراع والحتمية والمقارنة بينهما وبين السنن[1].

ولو اهتم الباحث في ثنايا عرضه للسنن وتعريفها - في الفصل التمهيدي ببيان الحاجة الملحة إلي كفاءات علمية تقوم علي استيعاب تلك السنن وبيان دورها كما هو هدفه من الدراسة - وأهمية تفعيلها وكيفية ذلك التفعيل بإجراءات عملية وخطط منهجية لكان أولي.

لقد اهتم الباحث ببيان مفهوم الحضارة في القرآن الكريم والذي يعني الاستقرار والعمران مع الإقامة والتطور لكن الملاحظ أن الباحث يخلط بين المصطلح والمفهوم، فعلي حين يعنون لفكرته بمفهوم الحضارة يخلص إلي أن القرآن الكريم أغني الباحثين عن البحث عن الدلالة الاصطلاحية للحضارة، ومعلوم أن

(١) أنظر: الصفحات من ٥٢-٥٧.

الفارق كبير والبون شاسع بين المصطلح العرفي، والمفهوم العام[١].

إن الباحث بماله من رؤية مستقلة لا تسلم بالآراء المنقولة والتحليلات المعقولة وذلك شاهد في تحليله لآراء ابن خلدون كمثال في فضل البيئة الجغرافية وأسبقيتها علي سواها في تحقيق التحضر البشري سيما في البيئات المتوسطة التي اشتملت بالتوازن في كل شيء وحتى في الأخلاق والطباع، ينقد نفسه فيستحسن منه ما رآه غير مسلم به في تحليله وعرضه، هذا إلي جانب أن الباحث غالبًا ما يميل إلي التكرار في عرض أفكاره وتلك طبيعة الطرح الفلسفي الذي يعمر صاحبه حتى يتوهم في كلامه ما لم يقله من قبل[٢].

إن القارئ للدراسة بمفصولها الخمسة لا يجد ترابطًا وتسلسلًا في الأفكار من الناحية المنطقية أو المنهجية، إذا لو أعيد ترتيب الفصول والأفكار لتأخر الفصل الثاني ووضع آخرًا قدم الخامس علي الثالث والرابع أو علي الأقل تقدم علي الحديث عن رأي المفكرين ليضع تصورًا قرآنيًا سديدًا يمكِّن من تحليل الرؤية الفلسفية للمفكرين الغربيين والمسلمين، ولدي ما لها من الإصابة أو الخفوق!

المتأمل في الدراسة وهي من قبيل التفسير الموضوعي - وهو ما بينه الباحث في خاتمة البحث - يتوقع أن تأخذ النظرة التفسيرية لآيات القرآن الكريم المبينة لسنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها حقها من التحليل والاستنباط للخروج بالعبر والعظات والقواعد المبينة لهدف الدراسة، لكن اللافت للنظر أن مصادر البحث ومراجعه التفسيرية أقل بكثير إذا ما قورنت بالدراسات الفكرية والفلسفية، وهو ما يعد قصورًا منهجيًا يغلب نظرة علي أخري أعني تغليب النظرة الفلسفية علي النظرة التحليلية لآيات القرآن الكريم. وهو ما يبعد بالبحث عن غايته في كثير من الأحيان

(١) انظر الصفحات من ٧٠-٧١.
(٢) انظر الصفحات من ١١٨-١٢٣.

ذلك أن ترجع إلي قائمة المصادر والمراجع للتأكد من ذلك!

إن النظرة التحليلية النقدية للبحث تأخذ علي الباحث كما فيه عدة نقاط.

أما ما يؤخذ علي الباحث:

أولًا: أنه لم يبين منهج الدراسة في مقدمة البحث باعتباره أولية علمية يفرضها البحث العلمي.

ثانيًا: أنه لم يقم بتخريج الأحاديث النبوية تخريجًا علميًا. مع تسليم بقلة الأحاديث النبوية في الرسالة.

ثالثًا: كثرة الاستطراد الفلسفي في طرح الأفكار ولعل طبيعة الباحث غلبت عليه.

رابعًا: أن ترتيب الأفكار بحاجة إلي تعديل منهجي يخضع للتسلسل والترابط.

خامسًا: غياب التمهيد عن الدراسة واستبداله بفصل تمهيدي - أخذ الباحث إلي تفاصيل البحث قبل الوقوف علي مدخل تأسيس للمفاهيم والمصطلحات ذات الصلة بالموضوع.

سادسًا: أن هذه الطبعة كانت بحاجة إلي مزيد تنقيح وتهذيب حتى تتخلص من الأخطاء الطباعية (المطبعية) وتناسق الإخراج في الفصول والتي صعدت بشكل تنازلي به بدلًا من الشكل المعتاد وهو التصاعدي، وبالتأمل في عدد صفحات الفصول من الأول حتى الخامس ندرك أن عدد صفحات الأول (٨٦صحفة)، الثاني (٧٧ صفحة) والثالث (٥٥ صفحة) والرابع (٥١ صفحة) والخامس (٤٣ صفحة).

سابعًا: أن الخاتمة كانت بحاجة إلي بيان أدق لأبرز ما توصلت إليه الدراسة من خلال الرؤية الموضوعية التي اعتمدها الباحث.

هذا ويحسب للدراسة وللباحث أنها محاولة جادة لرسم الطريق للأمة

الإسلامية المعاصرة في النهوض بالقيم الحضارية المستندة إلي الكتاب العزيز (القرآن الكريم).

أيضًا يحسب للدراسة التأكيد علي أن التحضير إرادة إنسانية تقوم علي اعتماد حرية الإنسان واستخدام قدراته الذاتية في التعامل مع الله ومع الكون ومع أخيه الإنسان. وهو ما تحتاجه الأمة في منعطفها الحاضر، والذي تأمل فيه أن تنهض بعد تخلصها من الأفكار والنظم الفاسدة.

ويحسب للباحث أيضًا التأكيد علي أن سقوط الحضارات يعود أولًا علي عوامل داخلية بانتشار الظلم والفساد القيمي والأخلاقي. وأن سقوط الحضارة لا يعني زوالها واستئصالها بقدر ما يعني غيابها الحضاري وهوانها علي غيرها من الأمم وهو ما عانت منه الأمة الإسلامية في الحقب التاريخية الأخيرة.

ويحسب للباحث القدرة علي الربط بين الظواهر الكونية والظواهر التاريخية والاجتماعية باعتبار الكل سننًا إلهية وإرادة سماوية تسعي إلي إحقاق الحق وإبطال الباطل.

هذا ولا يخلو عمل بشري من العوارض وللباحث شرف البحث وأجر المجتهد!

إن الدراسة متى أضيفت إلي ما سبقها وما لحقها من دراسات تقوم علي بيان السنن الإلهية في الأفراد والجماعات والأمم تعطي تصورًا قرآنيا هاديًا للأمة نحو التحضر والنهضة من جديد ذلك كي تقوم بما ينبغي عليها من دور ريادي أراده الله تعالي لها من جعلها خير أمة أخرجت للناس فاصطفي لها خير رسله وأنزل عليها خير كتبه وشرع لها أفضل شرائع دينه.

*****